المنهج النقدي عند "محمد مصايف"

د/ سنايسي رابح -جامعة تلمسان

"محمد مصايف"

أ- في الجانب النظري:

بدأ "محمد مصايف" كتاباته في النقد, باحثا عن مفهوم يوضح من خلاله وظيفة النقد و رسالة الناقد. و كان الدافع الرئيسي لديه في بحثه عن ذلك كله, جمود الحركة النقدية في بلادنا, بسبب أزمات استحال تخطيها عندما تفشى داؤها بين الأدباء و النقاد.

رأى أن معرفة أبعاد هذه الأزمة موقوفة على تحديد رسالة الناقد ووظيفة النقد. فغياب تصور عام لوظيفة النقد, و انعدام منهج ملائم يكون بمثابة الإطار لنتائج الأديب و الناقد معا, كل ذلك قد ساهم في توسيع الهوة بين حساسيات المبدعين و النقاد على حد سواء, و همش بالتالي الحركة الأدبية بصفة عامة, إذا ما قورنت بسائر نشاطات القطاعات الحياتية الأخرى, في وطننا بالذات.

و تساءل "مصايف" كثيرا حول ما إذا كانت رسالة الناقد تتمثل في شرح غامض العبارات و الألغاز, باعتبار أن أغلب الأدباء الشباب يلجأون إلى ذلك, أو في نثر الشعر كما اعتادت عليه الدراسات التقليدية, أو في تلخيص ما ألف من كتابات كالقصة و المسرحية, و هو أيضا ما احتوت عليه جل الدراسات الحالية. فبحث وراء كل هذا عن مفهوم سليم يميز فن النقد و يعطيه طابعه الخاص به. مفهوم يتضمن احترام قواعد الفن و أصوله, و يسير مواكبا للنهضة الوطنية و بخاصة في مجالها الإجتماعي.

و كغيره من النقاد أراد أن يلتمس مفهومه للنقد في وظيفته, انطلاقا من مفهومه للأدب في مختلف محاوره. لماذا مثلا, يكتب الأديب؟ هل للأديب غاية من

أدبه؟ و إن كان الأمر كذلك, فإلى أي مدى يستطيع الأديب أن يوفق بين غاية عمله الأدبي و ما تتطلبه أصول فنه هذا الذي أنشأه؟

"... ولعل أول شيء ينبغي أن نتفق عليه كمنطلق للتحديد الذي نريده هو أن الأديب المنتج لا يحمل قلمه ليتسلى بنظم قصيد, أو كتابة قصة أو مسرحية, بل ليقول شيئا يأخذ بمجامع قلبه, و يملأ عليه حياته, و يشغل تفكيره الناضج. و هذا الشيء يعبر عنه الأديب بأحد الفنون الأدبية المعروفة, و يتخذ لهذا التعبير أسلوبا يناسب الغاية من عمله, و يحترم الفن الذي يكتب في إطاره". ([1])

و الحديث عن الحركة الأدبية جملة, يعني الحديث عن الأدب و النقد معا. فصاحب كل منهما يخضع في تطوره للعوامل نفشها, كالإستعدادات الفطرية وطول الممارسة و الإستفادة من تجارب الغير في هذا الفن أو ذاك.

فالنتاج الأدبي و النتاج النقدي متلازمان, و العلاقة القائمة بينهما هي علاقة جدلية. فإذا سلمنا مثلا أن عندنا ضعفا في الأدب, فهذا ينعكس على النقد أيضا.

و عليه, فتلازم الأدب و النقد يخدم بدون شك الحركة الأدبية بصورة عامة, كما يتطلب أيضا أن ترقى مسؤولية الناقد إلى مستوى مسؤولية الأديب.

يتضح إذا من كل هذا, أن النقد ذو وظيفة مزدوجة. فهو ليس خصما للأديب, كما يفهمه البعض, بل إنه يخدمه و يساعده على التماس مواطن الضعف حتى يستقيم له فنه. و إنه أيضا يعين القارئ على إدراك ما في العمل الأدبي من تداخل بين العناصر التي كونته عند الأديب, ليعيها و يتذوقها. "نستفيد مما سلف شيئين: أولهما هو أن الإنتاج الأدبي و الإنتاج النقدي متلازمان, و أن تلازمهما مفيد للحركة الأدبية بخاصة و الحركة الثقافية بعامة, و ثانيهما أن رسالة الناقد لا تتمثل في هذه الشروح و التلخيصات و التحليلات و التبريرات التي تمتلىء بها صحافتنا الوطنية, و أن رسالة الناقد لا تقل أهمية بحال من الأحوال عن رسالة الأديب. فالناقد إن كان مزودا بأسلحة الفن و كان هادفا

و موضوعيا في كتاباته, يضيف إلى أبعاد الأثر الأدبي أبعادا جديدة توسع من مفهومنا للحياة و المجتمع الذي نعيش فيه..." ([2]) و ما قد يكون هنا من اختلاف بين الأدباء و النقاد, فيجب أن يكون في إطار الفن لأجل الفن قصد تطويره و السمو به, بخاصة الوسائل و عامتها حتى يبلغ غايته إن في ذاته أو في شيء غير ذلك.

و من مهمة النقد أيضا, تبيان الفكرة التي تشغل الأديب, و تحديد إطارها الفني و الفلسفي, لأنه, حتما ستتضح أفكار جزئية أو تكميلية كان الأديب في حاجة إليها لبلوغ غايته و تجسيدها. و عملية النقد في تعاملها مع الأثر الأدبي, بحسب هذه المهمة تتقاسمها مرحلتان:

فالمرحلة الأولى تعنى بحصر الفكرة أو العاطفة التي يرتكز عليها العمل الأدبي و يدور حولها لمعالجتها كلية أو جوانب منها على الأقل.

بينما تهدف العملية النقدية في مرحلتها الثانية إلى تسليط الضوء على مدى مطاوعة الأديب و استجابته لما يمليه عليه إطاره الفني بشكله العام, و مستوى قدرته على ملء فراغات هذا الإطار بأفكاره و أحاسيسه و التنسيق بينها بحكم خصوصية ذلك الفن الذي يكتب فيه, و هذه من جملة الأمور التي يراها ناقدنا صعبة المنال عند الناقد. "و من هنا كانت مهمة الناقد في هذا الميدان مزدوجة تتمثل في المرحلة الأولى في تحديد الفكرة أو العاطفة أو القضية الأساسية التي يعالجها الأثر الفني, و في المرحلة الثانية في معرفة ما إذا كان الأديب قد نجح في إطاره الفني العام, و في ملء هذا الإطار بالأفكار و المشاعر المناسبة بالطريقة التي يتطلبها الفن الخاص الذي يكتب فيه الأديب. و هي مهمة من الصعوبة بمكان و لذلك يتجنبها معظم نقادنا طلبا للراحة و العافية".([3])

و لم يتوقف "مصايف" في تكليف الناقد عند هذه المهمة, بل حمله من المهام ما يتجاوز بها إلى اللغة بمختلف أساليبها و إلى ما يتناسب بين الفن و أسلوبه, و

بين الفكرة أو العاطفة و لغتها, و كذا بين ما يكتب به الأديب و اختلاف الطبقات الإجتماعية, التي من أجلها يكتب.

إذن, فالنقد لا ينحصر في الحكم على اللغة بل لا بد له أن يلتمس التوافق الموجود بين الموضوع و الأساليب المستخدمة فيه, لأن هناك من التداخل بين الأسلوب و المضمون, ما يجعل الحكم على أحدهما بمعزل عن الآخر مستحيلا, و هذا من الأمور التي أصبحت مسلمات في أوساط النقد.

و عليه, فالنقد عند "مصايف" -تأكيدا لما مر معنا- يمر بمرحلتين قبل أن يقدم العمل الأدبي المنقود إلى القارئ. فهو يدرس ما يتناوله لأديب ما ثم يفسر ذلك. "و مهمة الناقد في هذا الجانب لا تنحصر في الحكم على اللغة من حيث الرقة و الخشونة, أو الغرابة و الإبتذال, أو الواقعية و الخيال, بل من حيث موافقتها كما سبق للموضوع العام أولا, و الأساليب المستعملة ثانيا". (4)

و "مصايف" بمفهومه هذا لا يغفل العنصر الشخصي عند الناقد بل ينفي حصول ذلك. فالناقد له عالمه الخاص, و له عنده أيضا ما يقوم عليه و ينظمه كباقي العوامل الأخرى. فهناك الذوق الذي لا غنى عنه من حيث تدخله في العملية النقدية, و هناك أيضا الأحاسيس و ما ينتظمها من ميولات عقائدية...

و إذا كان هذا من جملة ما يتحلى به الناقد في عمله وجب عليه إذن أن يساير الأثر الأدبي في جميع جوانبه, مقدرا جميع العناصر التي تداخلت فكونته, حتى يكون حكمه موضوعيا, و تظهر فيه مكانة الأديب المنتج و القارئ المستهلك. "هذا لا يعني أن شخصية الناقد المقتدر تمحى نهائيا في هاتين المرحلتين, فهذا شيء لا يحصل و لو أردناه, و دعونا إليه, لأن للناقد ذوقا لا بد أن يتدخل في عمله بطريقة أو أخرى, و مشاعر خاصة و اتجاهات عقائدية هي الجو الذي يتحرك فيه الناقد شاء أم كره, و إنما الذي أريد أن أقوله باختصار هو ألا يتسرع الناقد في الحكم على الأثر الأدبي, و أن ينتظر قدر إمكانه, ظهور الخط الأساسي لهذا الأثر ظهورا كافيا". (5) وتختلف الآراء حول مهمة أو مهام النقد باختلاف النقاد

أنفسهم, سواء تعلق الأمر بهذا الإختلاف من حيث انتماءاتهم إلى الإتجاهات الأدبية العصرية أو إلى الإتجاهات النقدية و مناهج الدراسة الأدبية. فمنهم من يحصر مهمة النقد في الدراسة و التفسير, و هؤلاء لا يرون للنقد أية صلة بالخلق و الإبداع, و يكتفون باستخلاص قواعد الفن الواحد مثلا, من جملة الفنون, و منهم من يوسع فيها بحيث تشمل الحكم و التقويم للعمل الأدبي, منطلقين من فكرة أن شخصية الناقد إنما تظهر في هذا المجال, لما هناك من موازنة بين المواقف و الآراء, و التي من شأنها أن ترتب عمل الأديب في الحركة الأدبية العامة, و إلى هؤلاء ينتمي "مصايف". "..., و لعله قد فهم في الوقت ذاته أني أرى رأي الطائفة الثانية من النقاد, و هي الطائفة التي توسع من مهمة الناقد, فتمنحه صلاحية الحكم و التقويم, و ترى أن هذه المرحلة من مهمة الناقد لا تقل أهمية عن المرحلتين الأوليين, و هما مرحلة الدراسة و مرحلة التفسير. و في نظري أن مقدرة الناقد و شخصيته إنما تظهر في هذه المرحلة, ..." ([6])

و مهما كان هناك من اختلاف حول طبيعة الأدب, فمن المتعارف عليه بين الأدباء و النقاد, هو أن الأديب مبدع. و أن العمل الأدبي هو أثر من آثار الأديب, قد يجمع من قريب أو بعيد أولا ما حاكه لديه نسيج الأخلاق و العادات و الملكات و كل ما يميزه عن غيره, و هو العنصر الشخصي.

و يضم ثانيا كل ما اكتسبه من رواسب العقل المعرفي و هو الخبرة الفنية التي يمتصها من محيطه أثناء ممارسته لفنه. و عاملا العنصر الشخصي, و الخبرة الفنية, بقدر ما هما أساسيان من حيث يقوم عليهما كل إبداع, بقدر ما يجلبان الخطورة للأديب, و لا ينجو من هذه الخطورة إلا ناضجو العقول. هذا, لأن الأديب في هذه الحالة محمول, إما على الإنسياق وراء الفن و ما يبتغيه منه, فيغفل بذلك دوره في مجتمعه و ما يمليه عليه بحكم أنه دليل عصره و أمته, و إما يحدث العكس و النتيجة هي نفسها.

من هنا كان البحث عن الجمع بين محوري السياسة و الفن معا هو خير وسيلة و أعم فائدة في التجربة الواحدة للأديب في نظر "مصايف". "إن الأديب المنتج مبدع ما في ذلك شك, و الإبداع شيء يقوم على عنصرين أساسيين أولهما العنصر الشخصي في الأديب, و ثانيهما الخبرة الفنية العامة التي يكتسبها الأديب بمعايشة محيطه و ممارسة فنه, ..." ([7]) و قوله فيما أشرنا إليه سابقا أيضا : "..., و أن الخير كل الخير في الجمع بين الخط السياسي و الفن في التجربة الواحدة". ([8])

و وصل "مصايف" في الأخير إلى إقرار وجهة نظره هاته, في تصوره لوظيفة النقد مشيرا إلى أنه لو عمل بها النقاد على أحسن وجه, لعمت الفائدة و تعاون الأدباء و النقاد, و تحققت النهضة, و زالت الأزمة التي يعاني منها الأدب و النقد معا في بلادنا.

و في حديثه عن رسالة الناقد, أراد "مصايف" أن يبرز الدور الذي ينبغي للنقد أن يقوم به تجاه الحركة الأدبية في الجزائر قصد تطويرها كما أشار إلى أنه سيعالج مفهوم النقد, و كذا الظروف الموضوعية التي تمكن الناقد من القيام بدوره كما يقتضيه النقد منه.

فدور النقد ينبغي ألا يضطر به الأمر حتى لا يجعل من وسائله غايات ومن الغايات وسائل, كما يجب عليه أن يفرق بين القضايا الأدبية, حتى يبعدها عن الضلال الذي طالما أصاب الدراسات الأدبية.

فقد غفلت الدراسة النقدية عن القضية الأدبية أيا كان شكلها, و هي غرضها الأول. فالنقد يعطي القضية الأدبية أو الحركة الأدبية بصفة عامة طابعها الخاص بها و يفصل بينها و بين القضايا الأخرى, حتى لا تتعثر.

و النقد أيضا يهدف إلى تحديد الإتجاه العام للحركة الأدبية, و رسم منحاها البياني, ثم يفعل ذلك مع المذاهب الأدبية التي قد تظهر مع هذه الحركة الأدبية. فيحدد فيها مكان الأديب أو الشاعر و السمة التي تطبعه و تميزه عن

غيره. و إذا ما اجتمعت عينات من المبدعين أو نماذج منهم, و ائتلفت منها خصائص ما, أمكن للنقد آنذاك أن ينظمها و يوحدها, و بالتالي يكون منها مذهبا أو مدرسة, و الشأن في ذلك كشأن الآداب العالمية. و بدون تحقيق هذا كله يبقى النقد قاصرا, إذ لا يمكنه اعتماد أديب واحد و لو في جميع مؤلفاته.

فعمل الناقد, ذو القيمة النقدية هو ما أحاط بجملة الأعمال الأدبية لمختلف الأدباء أو الشعراء من حقبة واحدة بالدراسة, مميزا في ذلك بين خصائص كل منهم في إطار الإتجاه العام الواحد.

فالمدرسة تطبعهم جميعا بالإتجاه العام, و لكن ليس فرضا أن تطبع جميع أعمالهم بالسمات نفسها, هكذا أراد "مصايف" للنقد أن يكون. "فالإتجاه العام للحركة الأدبية إذن هو الخط العام الذي يضم جميع الأدباء الواعين بالمرحلة التي ينتجون فيها, و المدرسة هي المنحى الفني و العقائدي الخاص الذي يميز الأدباء بعضهم من بعض. و مما لا شك فيه أن لحركتنا الأدبية إتجاها عاما, و هو هذا الإتجاه الواقعي الذي سلفت الإشارة إليه, و لآدبائنا مدارس خاصة يؤثرونها على غيرها و يبدعون في إطارها أعمالهم الناجحة. و النقد هو الذي يحدد هذا الإتجاه, و يحدد هذه المدارس على حد تعبير مندور". ([9])

و النقد عند "مصايف" لا يكفيه أن يكون وليد عصره من حيث تحديده لاتجاه الحركة الأدبية المرحلية, بل يتعدى إلى معاينة الجانب الإجتماعي لذلك العصر, للكشف عن مدى تعبير الأعمال الأدبية عن متطلبات المجتمع البشري تماشيا مع ما تفرزه أحداث هذا العصر نفسه. كما لا يكتفي النقد أيضا بإظهار هذه العلاقة القائمة بين الأدب و مجتمعه, بل عليه ألا يتهاون في رصدها قصد توجيهها, و شأنه هنا, هو شأن المبدع الملتزم بل أهم منه لأن لديه غاية و عليه أن يدركها بكل موضوعية و إخلاص, و بعيدا عن كل مجاملة. "و في تحديده للإتجاه العام الآنف ينبغي ألا لايغفل الجانب الإجتماعي في أعمال الأدباء, فيبين العلاقة التي تربط بين هذه الأعمال و بين تطلعات المجتمع, و مدى خدمة

هذه الأعمال لآمال الطبقات العاملة المحرومة. فتحديد الناقد للإتجاه العام لا ينبغي أن يكون حياديا, بل ينبغي أن يمتحن مدى التزام الأديب بقضايا المجتمع. و لا يجوز له أن يجامل في الحكم على الأعمال التي تشذ عن الخط العام, و تخدم تطلعات غير مشروعة, أو تحيي تقاليد أمست لا تتماشى و مطامح الجماهير الشعبية". ([10])

و العمل الأدبي كتلة متكاملة, ففيها وجهة نظر الأديب, و وجهة نظره هاته تعبر عن قضية أو تعالجها, و العملية كلها تقتضي أسلوبا خاصا لفن خاص و متميز. و الحصيلة أن في العمل الأدبي الواحد جوانب مختلفة و عناصر متداخلة, إلا أنها و الحال هاته تتطلب من النقد أن يكون كذلك في أن يعطي كل جانب من هذه الجوانب حقه من الإهتمام. فيدرس العمل الإبداعي و يوجهه ثم يقومه و إن اختلف كثير من النقاد حول آخر المراحل -مرحلة التقويم- و رأوا فصلها عن سابقتيها. "فلا ينسى القضية التي يعالجها العمل الأدبي, و لا الوسائل الفنية التي من واجب الأديب أن يستخدمها في التعبير عن هذه القضية". ([11]) و يضيف قائلا عن آخر مراحل العملية النقدية التي أسماها بالوقائية للعمل الأدبي مما هو شاذ فيه: "و بعد القيام بهذا العمل يكون الناقد قد وصل إلى مرحلة التوجيه و من ثم إلى مرحلة الوقاية من الأفكار الشاذة التي لا تخدم أدبا و لا مجتمعا. و هذه المرحلة هي مرحلة التقويم التي يفضل بعض النقاد فصلها عن باقي الدراسة...". ([12]) و يقتضي الإلمام بكل هذه الجوانب من الناقد ثقافة واسعة تسمح له بالتعرف على جميع مستويات العمل الإبداعي. و تصبح علاقة الناقد آنذاك, متصلة بشكل و مضمون العمل الأدبي من الناحية الجمالية, و بالمجتمع الذي يقدم إليه هذا العمل الفني بقالب إبداعي من جهة أخرى.

فالناقد إذن, مطالب بالتعرف أكثر على جميع خلفيات المجتمع الإنساني الذي صدر في وسطه العمل الأدبي, لأنها جزء من الأجزاء المكونة له. فهي تساعد

الناقد لا للحكم على العمل الإبداعي فحسب, بل أيضا لفهمه واستيعابه, و بالتالي تقديمه للقارئ.

فهناك حقائق قد ألمت بالعمل الإبداعي قبل ميلاده, و على الناقد أن يمتص من جذور هذه الحقائق, من إجتماعية و سياسية و فكرية, لأنها تمثل في جملتها تراكما حضاريا و نفسيا لمجتمع بعينه أو لمجتمع قد احتك بغيره, فتأثر وأثر. و إذا ما توفر لديه كل هذه, فيكون هذا الناقد قد هضم روح عصره وامتثل للمناهج التي ترضي متطلبات هذه العصر خادما في الوقت ذاته الحركة الأدبية.

و الثقافة العامة هذه, شرط له أو لويته عند "مصايف" و ينبغي للناقد أن يتوفر عليه. "و إن الثقافة الواسعة كما أسلفت هضم لروح العصر و معرفة للمناهج التي تلبي حاجيات العصر. و من قال روح العصر فقد قال كل ما يتعلق بالحياة الإنسانية اجتماعيا و سياسيا و أدبيا. هذه هي الثقافة الواسعة, و هذه هي الثقافة التي تساعدنا على تعمق الأثر الأدبي, و على استخراج كل ما فيه من اتجاهات و رموز, و على توضيح المنحى الإجتماعي و الفني لهذا الأثر". ([13])

و مما افترضه "مصايف" على النقد و رآه صالحا له, أن يكون هذا النقد ممنهجا و ذا غاية واضحة, حتى لا ينحرف صاحبه عن سواء السبيل. و لما كان الناقد كباقي الناس من البشر ينطوي على أحاسيس و ذوق فني فطري و البعض الآخر مكتسب, لا شك أنه يفترض فيه الإختصاص حتى يعرف عن هذا الفن أو ذاك أكثر من الجمهور العادي. و من هنا, فلا بد له أن ينطلق من منطلق بمرونة فكرية, على أن هناك كثيرا من النظريات أو المناهج في النقد, و كل منها يهدف إلى تفسير و تبسيط الأعمال الأدبية حتى يسهل تذوقها. كما يتعين على الناقد أن يتمثل الأديب في عمله الأدبي حتى لا تتسع الهوة بينهما سواء تعلق الأمر بالجانب الفني أو الغاية المنشودة فيأتي التقويم في واد, و الأثر الأدبي في واد آخر, و يكون الحكم بالتالي تقريظا أو تفظيظا لهذا كله من خلال نظرة عفوية أو كلمات مسطحة فقدت معانيها لكثرة استعمال النقاد لها. "و الأهم هنا في نظري

هو تحديد المنهج قبل الممارسة, لأن هذا التحديد يعصم الناقد من عشوائية مضرة, و يجعله يدرس العمل الأدبي دراسة موضوعية تعتمد على الشاهد المأخوذ من النص المدروس لا على الشاهد المقتطع من مطالعات نقدية سابقة". ([14])

و المنهج المحدد في النقد عند "مصايف" يمر بمراحل ثلاث, نحاول هنا الإلمام بها, و إيراد الأهم مما جاء فيها.

المرحلة الأولى, و تكون بمثابة التصور للإتجاه العام الذي احتضن العمل الأدبي. و في عالم هذا الإتجاه, يعثر الناقد على وجهة نظر الأديب أو شيء من هذا القبيل كموقفه من الحياة, و لا يخرج عن أن يكون موقفا ذاتيا أو إجتماعيا أو سياسيا... و هو ما يتطلب من الناقد التعامل مع العمل الأدبي في إطار هذا الإتجاه بالموضوعية و الحذر.

المرحلة الثانية, و هي تختلف عن سابقتها من حيث طبيعتها, و لكنها امتداد لها إذ أن الناقد يحاول فيها الإستدلال بالنصوص, فيسعى إلى تجميع جزئيات العمل الأدبي مع بعضها البعض, ليركب منها القضية الأساسية. و هي تتشكل طبيعيا من كل ما يتخذه الأديب في عمله الأدبي من وسائل فنية كاللغة, و الأسلوب, و الأحاسيس. و تمثل في مجموعها شكل هذا العمل الأدبي لكونها لا تعبر عن ذاتها, و لكن عما يشغل الأديب و يدور في خلده. و من هنا وجب على الناقد أن يأخذها كلية بعين الإعتبار.

المرحلة الثالثة, تكاد تجمع في العملية النقدية بين المرحلتين السابقتين بحيث تتعامل مع العمل الأدبي على أنه موقف و فن في آن واحد. فهي مرحلة تفرض على الناقد أن يفرق بين مختلف المواقف, بين ما هو عقائدي و ما هو فني, و سواء تعلق الأمر به أو بالأديب.

و على الناقد أخيرا أن يتلمس دواخل الوسط الذي ترك أثره على الأديب و عليه هو كناقد, و أن يرتقي إلى العمل الإبداعي ذاته, لأن الأديب لا يعبر من أجل التعبير و كفى, و إنما من أجل أن يوصل شيئا ما للناس عن طريق الفن

الذي ينبني على أسس لا ينبغي إغفالها في العملية النقدية. فليست كل الأعمال الأدبية بالضرورة مواقف عقائدية.(15)

ناقش "مصايف" قضية المناهج النقدية في حديث له كان ردا على مقالين لصاحبهما الأستاذ "عبد الأمير" كما أسماه هو, و سنختصر ما اختصره الناقد نفسه في هذا المجال, مركزين على أهم نقاط هذا الحديث. أظهر في البداية صعوبة تحديد المناهج النقدية, بحيث نفهم من كلامه أنه جعل النقد تابعا للأدب, و أنه بقدر ما تتشعب الظواهر الأدبية في مجتمع ما و في مرحلة معينة بما يطرأ عليها من أحداث, بقدر ما يكون من الصعوبة تحديد هذه المناهج النقدية... فكل ظاهرة إلا و لها خلفياتها داخل المجتمع الذي وجدت فيه, أضف إلى ذلك, ما تحمله من عناصر شخصية بفعل العنصر الذاتي لكل أديب و الذي يختلف من الواحد إلى الآخر, و هذا مما يسلم به جل من يعمل في حقل الأدب و النقد. "وأنا أعرف أن هذا التحديد من الصعوبة بمكان, و تأتي هذه الصعوبة من كون النقد يعتمد في تأسيس منهجه على الظاهرة الأدبية في تطورها و خلفياتها, وعلى العنصر الشخصي لكل ناقد يتعاطى النقد عن وعي". (16)

و لما كان الأدب بشكل عام أو ظاهرة أدبية معينة, في مجتمع ما إنعكاسا لما يفرزه التفاعل بين البنية الذهبية و التراكم الحضاري لهذا المجتمع, ربما استطعنا القول بأن النقد كذلك يتشكل في ظاهرة تكون بالتالي إنعكاسا للظاهرة الأدبية التي يتفاعل معها, و على هذا ترتسم معالم النقد العريضة. تقوم بقيام تلك الأحداث التي أوجدتها و تتغير بتغير مستجدات هذه الأحداث و التطور الحضاري لمجتمعها أو عن طريق العدوى من مجتمع آخر.

و على هذا لتصور حدد "مصايف" مسار النقد في أدبنا المعاصر بمراحل أربع, و نسب لكل مرحلة منهجا نقديا كان لها بمثابة الطابع المميز لها عن غيرها من المراحل. و هو و إن لم يكن منهجا دقيق التحديد, فإنه على الأقل يثبت وجوده و توظيفه عند غالبية نقاد هذه المرحلة. و نشير هنا فقط إلى ما

خص به هذه المراحل من المناهج النقدية أو مصطلحاتها لأننا لسنا بصدد دراسة هذه المناهج كل على حدة, و التأريخ لها, و إنما نريد إبراز رؤية "مصايف" أو تصوره لهذه المناهج النقدية و كيفية تحديدها عنده. "و في هذا الإطار يمكننا أن نقول إن النقد في أدبنا الحديث مر بمراحل أربع أساسية. و هي مراحل النقد التقليدي, و النقد التأثري, و النقد الواقعي, و النقد الإشتراكي. و كل مرحلة من هذه المراحل الأربع أسلمت إلى أخرى بصورة طبيعية و غير مفتعلة". (17)

و بطبيعة الحال, لقد أشار و هو يتحدث عن هذا كله إلى جماعة من النقاد رأى فيهم المعالم الكبرى التي جسدت كل مرحلة من هذه المراحل المذكورة, مقررا في ذلك أن العلاقة التي كانت تجمع دائما بين نشاطي الأدب و النقد, هي علاقة جدلية. فأراد من وراء هذا الوصول إلى القول بأن لكل حقبة أدبية نقادا يجمعون بطريقة أو بأخرى على تقاليد نقدية يتعاملون بها مع أدب هذه الحقبة, فيصبح كل من هؤلاء الأدباء و النقاد يدورون في فلكها, و قل أن نجد انحرافا عن هذا. "و إلى أنه يعسر نتيجة لذلك أن نجد اليوم نقادا تقليديين, و لا أقول محافظين, في الأدب العربي الحديث". (18)

و النقد عند "مصايف" ينأى عن أن يكون مجرد شعارات ينساق بدفع منها وراء منهج معين على حساب العمل الأدبي و كل ما أودعه فيه صاحبه. و هو أيضا لا يجرد العمل الأدبي من أدبيته, فيجعل منه وثيقة سياسية تنتصر لطبقة بعينها أو إيديولوجية مخصوصة, فيهضم حق الجانب الفني فيه. فالعمل الأدبي عنده, عمل مكتمل و متكامل بما فيه من الظواهر الإجتماعية و الحضارية الشديدة الإلتصاق, و التي انصهرت جميعها في أداة التعبير من خلال عالم الأديب بفكره و أحاسيسه. "فالقضية عندي إذن ليست قضية شعارات أختبئ وراءها, و إنما هي قضية مواقف أدبية مدروسة تنظر إلى الأدب على أنه أدب, لا على أنه وثيقة سياسية تعبر عن نزعة برجوازية أو ماركسية فقط, فالأدب عندي

ظاهرة إجتماعية و حضارية بالدرجة الأولى و في هذا الإطار المزدوج متغافل عن جانبه الفني و التقني" ([19])

و الثقافة الواسعة التي نجد "مصايف" يلح عليها لدى الناقد, واضح أنها ثقافة ذلك التوافق و التي تراعي في العمل الأدبي ما هو نفسي و غير نفسي, و تأخذه على أنه وحدة مصقولة بأدق ما يمكن. وحدة تم فيها الصراع بين الأديب و مجتمعه, و بين الأديب و ما تداخل لديه من أحاسيسه, و بين هذا كله و معايير جمالية. تلك الثقافة التي تساعد الناقد على التغلغل في روح العمل الأدبي شكلا و مضمونا. "فعمق الثقافة و سعتها إنما يظهران في استشفاف روح العمل الأدبي مهما كان على غاية من الخفاء, و في المحافظة على الإطار الفني و الإيديولوجي لهذا العمل و هو ما لا نشاهده إلا في القليل النادر". ([20])

مما لا جدال فيه أن العالم يتطور بما فيه, الإنسان و ما يحققه من حضارة. و سواء في ذلك, كان هذا التطور طبيعيا أو مفتعلا. و مما هو مسلم به أيضا, أن الأدب هو من جملة التراث الذي أخرجه هذا الإنسان للوجود و أبدع فيه. و الحال كذلك, يمكن القول إذن أن الحكم بالتطور في الأدب يقاس بمدى تطور الإنسان, لكونه لا يشذ عن باقي تراث الإنسانية في صيرورته و تحوله. و ما يبقى قابلا للنقاش في هذا المجال, هو محاولة الكشف عن عوامل تطور هذا الأدب, و الظروف التي احتضنته, و مدى ما تحقق من النتائج عن هذا كله و في أي من المواطن كالمضامين حيث القضايا عامة كانت أو خاصة, و الأشكال حيث الثورة على ما كان قائما من أساليب لغوية و غير ذلك مما يساعد على إخراج العمل الأدبي في صورة إبداع فني يتفاعل مع ذات القارئ.

الإحالات

([1]) محمد مصايف - دراسات في النقد و الأدب- الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر دط 1981- ص11.

([2]) نفس المرجع ص11

([3])- نفسه 13

([4])- نفسه 13

([5])-نفسه 13-14

([6]) - نفسه -14

([7])- نفسه -14

([8]) - نفسه 15

([9]) - نفسه 21

([10])-نفسه 22

([11]) - نفسه 22

([12])-نفسه 22

([13])-نفسه 25

([14])-نفسه 25-26

([15])-نفسه 27 و 31

[16] نفسه 34

[17] نفسه 34

[18] نفسه 35

[19] نفسه 36

[20] نفسه 37